الشخصية السودانية والحكم الاجنبي

جعفر بخيت

كان المجتمع السوداني في مطلع هذا القرن مجتمعاً متأخراً بالقياس لمجتمعات الشرق الاوسط، وذلك نتيجة للعزلة الفكرية التي ظل يعيش فيها مستمتعاً باستقلال سياسي طال مداه ، امتد من عصر الدولة الحديثة لقدماء المصريين حتى عام ١٨٢١ حينما غزت جيوش محمد علي باشا أرضه وأطاحت بالسلطنة الزرقاء .

ورغم ان هذه الحقبة الطويلة من الحياة الحرة تثير مشاعر الزهو في عصرنا هذا الذي يقدس التحرر من الحكم الاجنبي، الا انها كانت مسؤولة عن بطء التطور الاجتماعي والثقافي في السودان : فقد حرمته من التشرب بالثقافات المختلفة التي يكسبها بلد يتعاقب عليه الغزاة ، ولم تمكنه من الاستفادة من النهضة الاوربية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التالي له، ولم تهيىء الفرص له ليتلقح الفكر فيه بتلك المؤثرات المخصبة التي صاحبت غزو نابليون لمصر وأثارت حركات الاصلاح في أرجاء الامبراطورية العثمانية .

وظل المجتمع السوداني منطوياً على نفسه ، يستبدل حضارة من بعد اخرى في بطء وعفوية ، ويتلقى الافكار من الخارج مع قوافل التجارة التي كانت تعبر الصحراء لمصر او عن طريق شمال افريقيا لدارفور ، ويستوعبها متأنياً متمهلاً ؛ وكان أبناؤه سعداء ان جنبوا الهزات النفسية التي تصحب الاحتكاك الثقافي وتأتي نتيجة طبيعية لتعاقب الحضارات .

ولم يكن السودان معزولاً عن العالم الخارجي وحده ، وانما كان معزولاً عن أجزائه بفعل الظروف الجغرافية ومعزولاً حتى عن تاريخه القديم . كان تراثه المسيحي والنوبي والفرعوني مجهولاً لديه ، الا ما ترسب في العادات والتقاليد دون وعي وصار من مألوف الحياة ؛ وكان الاسلام ، وهو طارىء محدث جدّ عليه في القرن الرابع عشر الميلادي ، مصدر ثقافته في معظم أجزائه الشمالية والشرقية والغربية والوسطى ؛ وكان جنوبه وجيوب متفرقة في أجزائه الاخرى يعيش تحت ظل ثقافة وثنية في المدارج الاولى من

السلم الحضاري .

وكان ايمان الناس بالاسلام قوياً حاراً يكاد يماثل ايمان رجال القرون الاولى الذين عاشوا الدعوة في حياتهم اليومية وعاصروا احداثها، وكان تخلفهم الفكري عاملاً هاماً في تأجيج نار العاطفة الدينية في صدورهم . وهم وقد عرفوا الدين عن طريق التصوف لا عن طريق مدارس الفقه ، قوي عندهم التصديق بالغيبيات والاعتراف بالكرامات واليقين بأن وراء كل ظاهر جوهراً باطنياً هو الحق . ولم يكن في هذا مما يساعد على انشاء مجتمع متقدم يبني أسسه على المصلحة الظاهرة لمجموع الناس ويفسر احداث الحياة وفق سنن واضحة من مسببات لها نتائج طبيعية . ولهذا ظلت نظم الحكم والاقتصاد في السودان بدائية المحتوى أشبه ما تكون بنظم الاسرة والعشيرة .

وعندما غزت جحافل محمد علي باشا ارض السودان قابل السودانيون أسلحته النارية بالسيوف ، وكانوا مع ذلك يثقون بالنصر ! وأرسل محمد علي للسلطان محمد الفضل في دارفور يطلب منه التسليم فجاء رده معبراً عن مضمون الافكار التي كان يؤمن بها السودانيون .

« انكم طالبون دولتنا وطاعتنا وانقيادنا لكم » : هكذا بدأ السلطان رده، وتساءل: « هل بلغكم اننا كفار وجب لكم قتالنا وأبيح ضرب الجزية علينا ؟ ام ورد لك حديث من رسول الله تجد فيه تمليكك ؟ ام خطر لك خاطر من عقلك بأن لك رباً قوياً ولنا رب ضعيف ؟ » ومضى السلطان في رسالته يشرح انه أمير مسلم على رأس دولة شرعية تنفذ الحدود ، وختم رسالته بهذه الجمل الواثقة الساذجة : « أما علمت ان دارفور محمية بسيوف قطع هندية وخيول جرد أدهمية وعليها كهولة وشباب يسرعون الى الهيجاء بكرة وعشية؟ أما علمت ان عندنا العباد والزهاد والاقطاب والأولياء والصالحين؟... وهم بيننا يدفعون شر ناركم فتصير رماداً » .

ولأول مرة ، بعد استتباب الامر لمحمد علي ، ذاق السودان العيش تحت ظل ادارة أجنبية وعرف أهلوه مرارة النظام وذل الخضوع والامتثال للقوانين التي تسنّ وتطبق على الناس دون نظر لأشخاصهم او اعتبار لظروفهم . وكان هذا النوع من العدل الأعمى غريباً عليهم ، فلا عجب ان ضاقت نفوسهم بهذا الحكم وتعالى النداء « الموت في تربة ولا ريال في طلبة » . وكان الخلاص من حكم خلفاء محمد علي على اسلوب يتماشى وروح المجتمع السوداني الضاجر بظاهر الحياة والحفيّ بروحانياتها وقيمها الباطنة ، المتلهف لحياة عامرة بأحداث

الغيبيات وتعدد الكرامات .

وكانت ثورة الامام المهدي وانصاره التي أطاحت بالحكم المصري من بعد معارك أيقن فيها الثوار ان روح القدس كانت معهم تشد من أزرهم وتعمل على نصرهم .

وظل السودان مستقلاً ستّ عشرة سنة تحت ادارة من اهله تعمل وفق اعتقاد مخلص بأنها تنفذ شريعة الله ، حتى كان الفتح الثـــاني الذي نظمته السياسة البريطانية لتحمي مصالحها الحيوية في حوض النيل من منافسة فرنسا وتحفظ الطريق للهند مفتوحاً وتعوض عن فقدانها للسيطرة على شرق البحر الابيض المتوسط نتيجة اضمحلال نفوذها في الاستانة بتركيز موقفها في مصر .

وقاوم السودانيون الفتح مقاومة باسلة ، حتى كانت واقعة كرري في الثـاني من ايلول (سبتمبر) ١٨٩٨ ، ولم يكن في اندحار جيوش الانصار عندها نهاية دولة المهدية فحسب وخضوع السودان للحكم البريطاني تحت ظل شراكة اسمية مع مصر ، وانما كان ايضاً بداية تغير ثقافي هزّ أسس المجتمع السوداني والقيم التي كانت تسوده وتحدد اتجاه تطوره وتكيف سلوك أفراده . وكان أقسى ما في الهزيمة انها شككت في العقائد المقدسة التي ملأت صدور قبائل السودان حمية وحمـــاساً ، وبعثتهم في ثورة مطهرة وراء لواء مظفر ، يبغون من ورائها محو المفاسد واقامة مجتمع خيّر يقيم شريعـة الله ، لا على نطاق اقليمي ولكن على أساس عالمي شأن كل ثورة فكرية تهدف لاصلاح الانسان . وكان السيف والكتاب سندي دعوة الامام المهدي ، والشهادة في سبيل الحق أعلى مبتغى عند انصـاره الذين لم يتضعضع ايمانهم في المعارك التي خاضوها ، ولم يفقدوا الثقة في انهم هم المنصورون وان جند الله غالبة في النهاية .

ولكن النهاية جاءت مفجعة ! فالذين حرصوا على الموت لم توهب لهم الحيـــاة وانما جندلهم رصـــاص مدافع الماكسيم فوجاً من بعد آخر . والذين صابروا وصبروا ولم يولوا الادبار ، لم يكتب لهم النصر وانما لحقتهم الهزيمة . وقد كان كل هذا محنـــة للمؤمنين الذين وثقوا من ان نصر الله قريب وان دعوة الحق غالبة وان كانت ضعيفـة : بيد ان الواقع بعد كرري شهد بعكس ذلك ، فقـد غلب المؤمنون وعلت دعوة الكفر لأن القوة كانت تؤيدها .

ودخلت جند كتشنر مدينة ام درمان عاصمة المهدي، واستباحت ضريح السيد الامام ومسجده ، ولأول مرة منذ ثلاثة عشر عاماً لم يؤم خليفة المهدي جموع المصلين في الجامع الكبير كعهده طيلة ايام حكمه ، وانما انسحب للغرب آملاً ان يجمع حول رايته الزرقاء جموع الانصار مرة اخرى ليعيدوا الكرة ويطردوا كتشنر عبر الصحراء لمصر .

وارتفعت رايتا الحكم الثنائي على اطلال سراي القصر بالخرطوم الذي صرع غوردون على درجته ، وانكسر سيف المهدية ولكن بقيت دعوتها .

انسحب من صفها المراؤون ، وأصحاب المصالح ، والذين احتكموا للنتائج وحكّموا عقولهم وفقها ، والذين بنوا ايمانهم على انتصارات الدعوة الاولى واعتبروها معجزات ثم ضعف هذا الايمان حينما توالت النكبات ، وجماعات اخرى تحفظت في نصرتها للمهدية ، واخيراً كان هناك الذين لم يؤمنوا ابداً بها وناصبوها العداء . ولكن بقيت مع ذلك فئة صامدة وهبت نفسها للدعوة ، منتصرة كانت أو مهزومة ، موقنة ان كلمة الحق لا بد ان تعلو يوماً .

وكانت مشكلة الحكم الجديد ، وقد أقام دعائمه على الحديد والنار وسند سلطانه بقوته على البطش ، ان يجد لنفسه قبولاً طوعياً عند السكان ، فلا يحتاج لرفع السلاح في كل مناسبة . وكان الدين ، وما يقابله في المجموعات الوثنية ، هو المحور الذي تدور حوله حياة اهل السودان كما أسلفنا ، وكل محاولة لاستمالة القلوب لا يكون الدين عمادها مقضيّ عليها بالفشل . ولكن الدين كان عامل تفرقة بين الغزاة وبين القوم الذين كانوا يحكمون .

كان عامة الشعب البريطاني الذين تبرعوا بسخاء لكلية غوردون يحلمون بها كصرح يحقق ما اغوردون من مُثُل ، وغوردون كان مسيحياً مغرقاً في تدينه . وكانت جمعيات التبشير المسيحية تترقب انتصار كتشنر متململة ، لترسل جموعها للسودان تحاول ان تغرس ديناً جديداً انتصر أهله مكان دين آخر هزم انصاره ، مستهينة بما في هذا من مشاق : فقد كان حماسهم لعملهم فائقاً . وكان تخيل انصار الإمام المهدي وقد اعتنقوا المسيحية يلهب ذلك الحماس ويستفز قواهم .

ولكن اللورد كرومر الذي كان يدير أمور مصر والسودان عند الفتح وقف امام التيار التبشيري وعارض فكرة « تنصير » الأنصار واعتبرها غفلة وجنوناً ، وان كان

قد سمح بالتبشير في المناطق الوثنية ورأى ان أعقل الطرق لكسب السودانيين هي ان يجعل صلته بهم هذا الدين الذي يقدسونه .

وبدلاً من ان يكون الدين أساس الصراع بين السودانيين وغزاتهم جعله كرومر سنداً للسلطة الفاتحة وعاملاً مهماً في ترويض السودانيين وضمان تقبلهم للحكم الجديد ، وهم الذين كانوا ينعون على سلطان تركيا وخديوي مصر مهادنة الكفار والاستعانة بهم .

ولهذا عندما زار السودان بعد شهور من واقعة كرري خطب كرومر في جمع من المشايخ والأعيان بأم درمان ، فأعلن سياسة الحكم الجديد : وهي احترام الدين الاسلامي والعادات الاسلامية وعدم التدخل في ممارسة الشعائر . وما كان هذا كله كافياً ليقنع بعض النفوس المؤمنة ، التي كانت تحس ان احترام الدين الاسلامي يعني اكثر من مجرد السماح باداء الشعائر الدينية . فوقف احد المشايخ يسأل ان كان وعد اللورد كرومر يشمل تطبيق الشريعة الغراء ؟ وقد ردّ كرومر على ذلك بالايجاب ، الأمر الذي سرّ له الجمع ، ولكنه كان سروراً لم يطل اذ سرعان ما تبين انه وعدٌ لم يقصد به التنفيذ .

ومع هذا فقد كان فيما تعهد به كرومر ما كفى لجذب تلك العناصر في المجتمع السوداني التي عادت الحركة المهدية أو تخلت عنها . ومع ذلك كانت تستمد قيمها من الدين الاسلامي وأفكاره . وكانت مشكلة هذه العناصر ان تلائم بين الولاء لأفكار الاسلام التي لا يستقيم معها الخضوع لحكم اجنبي ولاته من غير المسلمين ، وبين التعاون مع الحكم الجديد .

ولكن شكليات الحكم الثنائي رغم صوريتها كانت ذات أثر هنا . فخديوي مصر الذي كان السودان يحكم باسمه كما يحكم باسم ملكة بريطانيا هو والي من ولاة سلطان الدولة العليا خليفة المسلمين . فالولاء لحكومة تستمد سلطتها من اسمه ليس فيه ما يتعارض مع الاسلام ، ان لم يكن فرضاً من فروض الدين يؤديه المرء طاعة لله وتقرباً منه وزلفى .

وهكذا بعد خفض شوكة المهدية عسكرياً ، اتجهت سياسة الحكم الثنائي الى محاربة دعوة المهدية بسلاحها ذاته ، وهو الدين ، وذلك باظهارها كبدعة لا تتمشى وحقيقة الأصل الذي تنتمي اليه . وكان من نتيجة هذه الحرب ان تكوّن تيار متهادن مع السلطة الحاكمة يرتكز على الاسلام ويؤمن به ويدعو له ، ولكنه لا يجد في ذلك ما يبرر رفع راية العصيان والثورة ضد أولي الأمر . وقد شاع بين زعماء هذا التيار ان الله يؤيد الدولة

العادلة وان كانت كافرة ويخذل الدولة الظالمة وان كانت مسلمة . وقوّى من موقفهم مع أنفسهم ما رأوه من خضوع مسلمي الهند وشيوخ الأزهر في مصر للحكم البريطاني .

ورغم ان الشعب في مجموعه كان يبغض فكرة الخضوع للسلطة أياً كانت ، الا انه كان سلبي الاتجاه في المعارضة ، بفهمه للدين عن طريق مذاهب التصوف التي كانت تشجع الاهتمام بجهاد النفس وتعتبره الجهاد الاكبر ، اكثر من تشجيعها لتقويم المنكرات ، وتغالي في تزيين مزايا الزهد وتقرب للمريدين امكانية « الوصول » للمقامات العُلى بالرياضة النفسية والعبادة ، الامر الذي جعل الاحوال العامة وشؤون الحكم ميداناً مهجوراً لا تخشى فيه الحكومة دعوة للنزال مستمدة من أخطائها تحاسبها على التقصير والاهمال وتقرعها بالحجة والمنطق . ولكنها مع ذلك كانت تحس بالخطر لغلبة الشعور الديني على عواطف الناس أجمعين ، من تخاذل منهم وهادن ومن انطوى على ضعفه متربصاً .

وكان درع الحكومة الواقي ضد الشعور المناهض لها هو سلاحها الباطش كما قدمنا ، ولكنها لم تكتفِ به بل عمدت الى الدين تستهوي به قلوب الافراد ذوي النفوذ . فقد ارسل كتشنر اول حاكم عام للسودان منشوراً الى مديري المديريات يحدد لهم ما يجب ان يقوموا به من الاهتمام الشخصي بمشاكل الاعيان المحليين حتى يحسوا بتجامع المصلحة بينهم وبين الحكومة وان يشجعوا قيام المساجد ويحترموا المشاعر الدينية .

ورغماً عن كل هذا ، ما استطاع البطش والترغيب ان يخمد نار الثورة في صدور الذين انطوت نفوسهم على حب الجهاد . فقد ظل الخليفة عبدالله لعام كامل بعد هزيمته في واقعة كرري يسيطر على غربي النيل الابيض ويهدد مركز الجيش الفاتح حتى في ام درمان ، وكان الخليفة في الواقع زاحفاً نحو الشمال بجيشه في اتجاه عاصمته المحتلة حينما اصطدم بقوات الحكومة في المعركة التي انتهت باستشهاده الباسل هو وكبار أعيانه على مفرش الصلاة مستقبلين القبلة متلقين الرصاص . وكانت نكبة اخرى .

ولكن القلوب المؤمنة لم تيأس ، وانتشرت بين الناس نبوءة للمهدي عن آخر الزمان حينما يفد المسيح الدجال على رأس قوم حمر الوجوه زرق العيون يأتون المنكرات ، لا يحترمون كبيراً ولا يرحمون صغيراً ، يقتلون الانصار ويبطشون بالخلفاء ويوهنون الدين حتى ليكاد ان يقتلع من الارض . ثم يأتي نصر الله ، فتنفرج الغمة ويظهر « المنقذ » ، فيهزم الكفار ويفرح المؤمنون وتعلو كلمة الله في الارض .

وينظر الناس حولهم ، وتتهامس الأفواه بأن كتشنر هو المسيح الدجال ، وقد كانت

بوجهه مشابه من الأوصاف التقليدية . وتتناقل الألسن كرامات للخليفة عبد الله، فيوقن المخلصون في ايمانهم بأن وقت الخلاص غير بعيد . فتشب الثورات في كل بقاع السودان ، يقوم بها المسلمون والوثنيون ويشترك فيها من ينتمي الى سلالات عربية او من يرجع أصله الى عناصر زنجية . ولم تمضِ سنة في السودان منذ الفتح حتى اول العشرينات لم ترفع فيها راية العصيان ضد الحكم الاجنبي ، ولكنها كانت جميعاً ثورات عقيمة انتهت بالفشل لأنها كانت تقوم تلقائياً نتيجة اندفاع متحمس دون تنظيم او تدبير .

ومع ان هذه الثورات كانت ضعيفة الاثر الا ان مجرد قيامها كان يثير الذعر بين الموكلين بحفظ الامن. فالسودان قطر شاسع بدائي المواصلات، والعواطف الدينية سريعة الالتهاب ؛ وكان الاداري البريطاني المسؤول عن منطقة ما يجد نفسه في بعض الاحايين ضابطاً للامور في المكان الذي يتواجد فيه بشخصه ، وما بقي من ارجاء منطقته كانت تتحكم المصادفات في تسيير اموره اكثر مما يتحكم التدبير .

فلا غرابة بعد هذا ان نجد الحكومة تنظر بقلق للموقف ويعلن اساطينها في يأس ان الشخصية السودانية ملتصقة بالخرافات وسريعة الاستجابة لدواعي التعصب الديني ، وانه الى ان يتم الخلاص من هذا « النقص » العالق بها فلا مفرّ من الاعتماد على القوة لتركيز سلطان الحكومة .

وكانت وسيلة الخلاص المرتقبة هي التعليم. وهي وسيلة ذات اثر في قطر ما يزال اهله — كما عبر جيمز غري ، اول مدير للمعارف في السودان — قادرين على ان يؤمنوا بإمكان اي رجل بلغ درجة « الصلاح » ان يأتي بالماء لبئر معطلة اثر دعوة من فيه ، او يخرج من باطن الارض كنوز الفضة ويجلب من وراء السحب خيلاً مجنحة باشارة من يده ، او يجعل اتباعه محجوبين عن الرصاص بتعويذة .

ولكن اي نوع من التعليم هذا الذي تريده الحكومة ليعالج « نقص » الشخصية السودانية ؟ للاجابة على هذا السؤال لا بد من الاشارة للورد كرومر . فقد كان مسؤولاً عن توجيه سياسة الادارة في السودان، وكانت معظم توجيهاته متأثرة بخبرته في حكم مصر التي قاربت مدتها عشرين عاماً عندما تم فتح السودان .

لم تكن آراء كرومر في استعداد المجتمع السوداني للترقي متفائلة . فحتى اكثر اجزاء

السودان تقدماً كانت في رأيه ما تزال في طور البربرية ، وحتى مصر المتحضرة كان يحسب انتطوير شخصية اهلها يحتاج لأجيال لأنهم يرزحون تحت ثقل حديدي من تعاليم الاسلام يعرقل تقدمهم .

لم يكن التعليم المراد اذاً ذلك الضرب من التربية الذي ينمي الشخصية ويبني الاخلاق والذي اعتز به كرومر عندما كان يمتدح عبقرية الشعب البريطاني في احدى خطبه لأهل السودان ، فذلك امر لم يهيأ له الناس في مصر والسودان. وإنما كان نوعاً من افشاء المعرفة يساعد الادارة على اداء اعمالها في ظروف اليسر ويهيىء لها من اهل البلاد من يقومون بانجاز الواجبات الصغرى ، وهذا بدوره يفتح للشباب باباً للرزق والاكتساب يصرفه عن الثورات . ولكن التعليم على اي شكل كانت له اخطـــاره السياسية ، ولم يكن كرومر بالغافل عن هذا : فلقد كتب لخلفه في حكم مصر السير الدون غورست : « لا بد للتعليم ان يثمر ثماره الطبيعية ، واولى هذه الثمار في مصر والهند هي الرغبة في الخلاص من الحكم الاجنبي . ومن ثم كان لا بد من رسم سياسة التعليم في حذر حتى لا تـُضرّ مصالح الدولة الحاكمة ، والضنّ به على من لا يحتاجون له » .

وقد كان كرومر يرى في تشجيع التعليم المهني ما يضعف من قوة الحركات الوطنية ، وفي نشر التعليم الاولي ما يساعد على توعية مجموعات الشعب واعطاء الفرصة لها لتوازن بين ما تؤديه الادارة لها من خدمات وما يتهمها به معارضوها من الوطنيين من تقصير . وفي حسبانه انه لولا دواعي التعصب والجهل لما قوبلت اعمال بريطانيا في مصر والسودان بغير الحمد والثناء .

لكل هذا كان كرومر حريصاً على ان يجنب السودان، او على الاصح ان يجنب الادارة البريطانية في السودان ، مساوىء التعليم في مصر والهند ، بأن يؤجل الى ابعد مدى قيام طبقة من المتعلمين ذات آراء خطرة تذكي شعور العداء بين الشعب ضد الحكم الذي ، رغم انه كان اجنبياً ، الا انه كان اداة الاصلاح والحضارة . ولهذا اقتصر التعليم على المعارف الاولية .

ولئن كانت مثل هذه السياسة بالنظر لمصلحة الادارة البريطانيـــة محمودة العواقب الا انها كانت سلبية الاتجاه . وقد تجاهلت في المكان الاول حل الاشكال الذي كان يواجـــه الادارة والذي اشار اليه غري ، وهو ايجاد رباط ثقافي بينهاوبين مجموعة الشعب السوداني او بين فئات منه او على أسوأ الفروض بين نخبة مختارة من ابنائه .

كان الدين والعنصر عاملي تفرقة ، وكان التعليم هو الوسيلة الوحيدة لخلق تيار جديد في المجتمع السوداني يستمد قيمه من ثقافة غير موروثة ويهدف لتحقيق افكار يمكن ان يتعاطف فيها مع السلطة الحاكمة. وقد نجح الفرنسيون في هذا نجاحاً كبيراً في مستعمراتهم بغربي افريقيا . ولكن الخوف من العواقب في المستقبل البعيد جعل من المتعذر اتباع السياسة الرشيدة في الوقت المناسب لها ؛ وهكذا ترك المجتمع السوداني دون « اصلاح » ، للغيبيات عليه حتى يومنا هذا تأثير كبير .

وفي حين ان خطط السياسة البريطانية في السودان كانت تتجه الى الاستئثار بحكم السودان وتصفية نفوذ مصر فيه ، كان من نتائج السياسة التعليمية الشحيحة ان باعدت بين المتعلمين السودانيين والثقافة البريطانية وجعلت تأثيرها عليهم مظهرياً ، وفي الوقت نفسه قوّت هذه السياسة من تأثير الثقافة المصرية ووطدت نفوذ مصر في العقول والنفوس ، ووقع ما كانت بريطانيا تجهد نفسها ضده .

وقد كان من نتائج دوران المتعلمين السودانيين في فلك الثقافة المصرية ، وهي ثقافة تنبع من العين نفسها التي تنبع منها ثقافتهم المحلية ولكنها تمتاز عليها بالتنوع والجودة والاتصال بالفكر الاوربي ، ان تطور الشعور بالولاء الديني الى احساس بالوطنية دون ان يصاحب هذا التطور ألم عاطفي مبعثه التخلي عن معتقد عزيز ودون ان يدفع هذا التطور بزعماء الحركة الوطنية الى كسر حدة الهبّة الوطنية باللجوء الى تركيزها على اسس عقلية ومنطق متكامل ، كما فعل احمد لطفي السيد وسلامة موسى في مصر .

ولئن ادت السياسة التعليمية التي اختطتها الادارة البريطانية الى احباط نجاح اهدافها السياسية الخاصة بها ، الا انها افلحت في زعزعة الاساس القوي الذي كان يرتكز عليه المجتمع والذي كان يجد قوته في ذلك التطابق بين السلوك والمعتقدات وبين القول والعمل . وفرقت وحدته عن طريق الترغيب والمكافأة المشروطة ، فكانت تحتضن طائفة ثم تتنكر لها وتميل لمنافستها ، ثم تعود فتستميل الاولى وتمد الطرف لثالثة ، وهكذا مما جعل المجتمع ممزقاً غارقاً في العواطف السوداء . وقد نزعت فئة المتعلمين من مجتمعهم ، ولكنها لم تضمهم لصدرها بل تركتهم دون حاضن ، فخلقوا لأنفسهم دورهم الخالد في قيادة المجتمع السوداني دون ان ينتموا لأسسه الموروثة انتماء كاملاً ودون ان يتنكروا له ايضاً .

ومضى ربع قرن من الزمان بعد الفتح ، نضج فيه جيل ولد بعد واقعة كرري فلم يشهد سقوط الخرطوم ومصرع غوردون ودولة الخليفة في ام درمـــان ولم يشهد بطش كتشنر ومدافعه الحاصدة ، ولكنه عاصر حركات الاصلاح في الشرق الاوسط وتشرب في كلية غوردون بما كان يبثه الاساتذة المصريون والسوريون من حب العروبة والاسلام ، فانطبعت شخصيته بهذا الطابع من الوطنية العاطفية واصبحت استجابته لقيم الاسلام اهتزازاً نفسياً اكثر منه تطبيقاً عملياً.

وواجهت الادارة البريطانية في هذا الجيل الذي صنعته بأيديها الخطر الذي كان يخشاه كرومر . ولم يكن هذا الخطر بديلاً عن خطر التطرف الديني ، ولكنه كان مكمـــلاً له ونابعاً منه. وما كان اكثر آيات القرآن وشواهد الجهاد وأحاديث التضحية التي كان يرددها زعماء الوطنية في احاديثهم .

وجاءت حوادث ١٩٢٤ مؤكدة فشل الادارة البريطانية في ان تستفيد من التيـــار الاسلامي المتهادن في وأد الاحساس الوطـــني وفي خلق وطنية سودانية متعاونة معها كتلك التي نشأت في مصر حول حزب الامام محمد عبده ، فاتجهت السياسة وجهة جديدة.

وكانت هذه الوجهة الجديدة هي المؤسسات القبلية . كانت الادارة تبتغي ان تجد في قيمها الاصيلة وثقافتها المحلية واهتمامها لعاجل الامور وما مسّها منه مباشرة مـا يصرف عنها ثورة الوطنية وما يمكّنها من السيطرة على سواد الناس وعزل المتعلمين عن الشعب .

واصبح العلم شيئاً يتخذ ضرورة . وتنكر الذين اسسوا كلية غوردون لما نادوا به من ان الاصلاح والرقي رهين بانتشار المعارف، وغدا المتعلمون كالمنبوذين في نظر الحكام الذين انكروا ان لهم اصالة: فقد مسخ شخصياتهم ذلك القليل من العلم الذي تلقوه ولم يهضموه، ورأوا في غير المتعلمين من رجال القبائل نبلاً طبيعياً وسحر شخصية يجعلهم حلفاء الحكومة.

وكان من نتيجة هذا تعطيل التقدم التعليمي والتيه في تجـارب ادارية لبناء مجتمعات اقليمية معزولة عن مذاهب العصر وقيمه طوال عشرة اعوام ، اقتنع بعدهـــا مخططو السياسة الادارية بالسودان بان التعليم هو العامل الاول في التطور الحضاري وان هدفـــه الاساسي صقل العقل وتربية الشخصية . ومن يومها اتجه المجتمع السوداني اتجاهاً صالحاً نحو الرقي ، ولكنه اتجاه جاء متأخراً . وما اكثر ما ضاع في حياة الشعب السوداني من حقب زمنية لم يتيسر له فيها ان يصلح من امره ، ومردّ هذا كله العزلة عن مصادر الحضارة ، وإلفة الموروث من القيم ، وخوف التجديد .